مقدمات في التفسير البياني

كلية أصول الدين

مسار القرآن

المستوى السابع

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

أولًا: تعريف التفسير البياني:

يعرَّف التفسير بأنه "علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحِكَمه.

وأما التفسير البياني فهو التفسير الذي يبين أسرار التركيب في التعبير القرآني، فهو جزء من التفسير العام إلا أن التركيز فيه على بيان أسرار التعبير من الناحية الفنية كالتقديم والتأخير، والذكر والحذف، واختيار لفظة على أخرى وما إلى ذلك مما يتعلق بأحوال التعبير.

ثانيا: نشأة التفسير البياني:

= عهد النبي صلى الله عليه وسلم:

إن الناظر في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والمتأمل في أحاديثه في تفسير القرآن فإنه يلتمس الأصول الأولى للتفسير البياني وقواعده الأساسية فقد جاء في حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه، قال: لما نزلت: {حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود} [البقرة: ١٨٧] من الفجر قال له عدي بن حاتم: يا رسول الله، إني أجعل تحت وسادتي عقالين: عقالا أبيض وعقالا أسود، أعرف الليل من النهار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن وسادتك لعريض، إنما هو سواد الليل، وبياض النهار» رواه مسلم في صحيحه. فالنبي صلى الله عليه وسلم انتقل به من المعنى الحقيقي إلى الاستعارة.

وأخرج الترمذي في جامعه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في قوله: {وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون} [الواقعة: ٨٢] قال: «شكركم، تقولون مطرنا بنوء كذا وكذا وبنجم كذا وكذا»: ففسر الرزق بالشكر فوضع الشكر موضع التكذيب.

= عهد الصحابة رضوان الله عليهم:

سار الصحابة رضوان الله عليهم من بعد النبي صلى الله عليه وسلم كذلك على وجه، تحكمهم سليقتهم العربية ليظهروا تفسير الآيات البياني، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

في قوله تعالى: (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون (٢٦٦) قال: هذا مثل ضرب لإنسان يعمل عملاً صالحا حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج ما يكون إليه عمل عمل السُّوء، رواه ابن جرير في تفسيره. وجاء عن ابن عباس في تفسير سورة النصر أنه قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لِمَ يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم فدعاهم ذات يوم فأدخله معَهم، فقال: ما تقولون في قول الله، عز وجل: {إذا جاء نصر الله والفتح}؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نَصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئا، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له، قال: {إذا جاء نصر الله والفتح} فذلك علامة أجلك، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول. رواه البخاري.

ثالثاً: جهود المتقدمين في التفسير البياني:

ما سبق ذكره من آثار عن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضوان الله عليهم في هذا النوع من التفسير البياني كان قبل عصر التدوين مما تناقله الرواة وسجله المؤلفون.

فمما جاء عن التابعين من عناية بالتفسير البياني ما ورد عن عكرمة أنه قال، في قوله: (لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) قال: هذا من التقديم والتأخير، يقول: لهم يوم الحساب عذاب شديد بما نسوا. وغيره من أقوال التابعين.

أما الجهود اللاحقة بعد التدوين فنجملها فيما يأتي:

١ -أبو عبيدة: أول من تحدث عن مسألة التفسير البياني في عصر التدوين، وأبو عبيدة معمر بن المثنى البصري المتوفى سنة ٢١٠هـ، له مؤلفات منها: مجاز القرآن، ويقصد به ما يجوز في اللغة لا ما اصطلح عليه علماء البلاغة من المجاز الذي يقابل الحقيقة. والكتاب في مجلد واحد يتحدث عن معاني القرآن مما يجوز في لغة العرب فهو كتاب من كتب معاني

القرآن، وله عناية بالتفسير البياني، وسأورد بعضا من الأمثلة الواردة في كتابه والتي تمثل جهدا متميزا في هذا النوع من التفسير، مكتفيا بالذكر دون التعليق خشية الإطالة:

– من مجاز ما جاء لفظُه لفظَ الواحد الذي له جماع منه، ووقع معنى هذا الواحد على الجميع، قوله تعالى: «ثم يخرجكم طفلا» فإن مجازه أطفال، والعرب تضع لفظ الواحد فى معنى الجميع.

ومن مجاز ما يحول فعل الفاعل إلى المفعول أو إلى غير المفعول قوله تعالى: «ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة»، والعصبة هي التي تنوء بالمفاتح.

٢ –الإمام الفراء: أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء أمام الكوفيين والمتوفى ٢٠٧هـ من كتبه: معاني القرآن.

ومن الأمثلة في كتابه مما يتعلق بالتفسير البياني قوله تعالى:(فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) قال الفراء: (ربما قال القائل: كيف تربح التجارة وإنما يربح الرجل التاجر؟ وذلك من كلام العرب: ربح بيعك وخسر بيعك، فحسن القول بذلك لأن الربح والخسران إنما يكونان في التجارة، فعلم معناه. ومثله من كلام العرب: هذا ليل نائم. ومثله من كتاب الله: «فإذا عزم الأمر»، وإنما العزيمة للرجال.

٣ –ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم الدّينوري، المتوفى سنة ٢٧٦هـ، كان إماما ضليعا في العربية له العديد من الكتب أشهرها: غريبَ القرآن وتأويل مشكل القرآن.

والذي يعنينا من كتبه النافعة الماتعة كتابه تأويل مشكل القرآن، فقد وقف عند كثير من آي القرآن الكريم يجلّي ما فيها من بيان مما كان له أثر عند العلماء.

من ذلك قوله تعالى: (أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس)، قال: أي كان كافرا فهديناه وجعلنا له إيمانا يهتدي به سبل الخير والنجاة، فاستعار الموت مكان الكفر، والحياة مكان الهداية، والنور مكان الإيمان.

٤– الباقلاّني: محمد بن الطيب بن محمد أبو بكر، المتوفى سنة٤٠٣هـ إمام من أئمة المتكلمين ومن منظري المذهب الأشعري.

كتب الباقلاني كثيرا من الكتب؛ مدافعا عن الدين، ذابا كل ما يلقيه خصوم الإسلام من شبهات، وما يوحون به من شكوك، من هذه الكتب إعجاز القرآن، والتمهيد، والانتصار. أما كتابه إعجاز القرآن فأنه أشهر كتاب في الإعجاز؛ فلقد ظلَّ على مدى القرون السالفة المرجع الوحيد لهذه المادة؛ بل إن كثيرا من المتخصصين لم يعرفوا غيره.

ومن الأمثلة التي تحدث عنها الباقلاني مما يتعلق بعلم البيان قوله رحمه الله:(فأما بيان القرآن فهو أشرف بيان وأهداه، وأكمله وأعلاه، وأبلغه وأسناه، تأمل قوله تعالى: (أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوماً مُّسْرِفِينَ) في شدة التنبيه على تركهم الحق والإعراض عنه.

وقوله: (ولَن ينْفَعكُم الْيوم إِذ ظَّلَمتُم أَنَّكُم فِي الْعَذَابِ مشْتَرِكُونَ) وهذا بليغ في التحسير.

وقوله: (ولَو ردُّواْ لَعادواْ لِما نُهُواْ عنْه) وهذا يدل على كونهم مجبولين على الشر، معودين لمخالفة النهي والأمر. وقَوله: (الأَخلاَّءُ يومئذ بعضهم لبَعْضٍ عدُوٌّ إِلاَّ الْمتَّقِينَ) هو في نهاية المنع من الخلة إلا على التقوى.

٥ -الجرجاني: عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد المتوفى سنة ٤٧١هـ.واضع أصول البلاغة، وإمام في اللغة والأدب والنحو والبيان والنقد، له نتاج بديع فيما يتصل بالقرآن وبيانه، ومن أبرزها الرسالة الشافية ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، تحدث عبد القاهر الجرجاني عن البلاغة في أصالة معناها وسمو هدفها وغايتها، فجاء ووضع نظريته في المعاني، وهي نظرية تقوم عليها أن اللفظ لا ينظر إليه من حيث هو لفظ، وإن المعنى لا ينظر إليه من حيث هو معنى، وإنما ينظر إلى الأول من حيث هو قالب للمعنى، وينظر إلى الثاني من حيث المقصود فجاء بكتاب دلائل الإعجاز، وبين فيه أن جمال هذا النظم إنما يعظم ويحسن بقدر تأثيره بالنفوس وهذا ما اختص به كتابه دلائل الإعجاز.

أما كتابه الثاني فهو أسرار البلاغة، ولقد كانت دراسته فتحا جديدا في هذه الفنون وهو يطبق ذلك على آي الكتاب العزيز.

ومن الأمثلة التي أوردها وبلغ فيها الغاية شرحا وتفصيلا حديثه عن قوله تعالى:{وفجرنا الأرض عيونا} [القمر: ١٢] يقول الجرجاني: التفجير للعيون في المعنى، وأوقع على الأرض

في اللفظ وقد حصل بذلك على معنى الشمول، وذلك أنه قد أفاد أن الأرض قد كانت صارت عيونا كلها، وأن الماء قد كان يفور من كل مكان فيها، ولو أجرى اللفظ على ظاهره فقيل: وفجرنا عيون الأرض أو العيون في الأرض لم يفد ذلك ولم يدل عليه ولكان المفهوم منه أن الماء قد كان فار من أماكن فيها عيون متفرقة في الأرض.

ويتساءل عن قوله: (واشتعل الراس شيبا) فإن قلت: فما السبب في أن كان "اشتعل" إذا استعير للشيب، على هذا الوجه، كان له الفضل؟ فالسبب أنه يفيد، مع لمعان الشيب في الرأس، الذي هو أصل المعنى وأنه شاع فيه، وأخذه من نواحيه، وأنه قد استقر به، وعم جملته، حتى لم يبق من السواد شيء؛ وهذا ما لا يكون إذا قيل: (اشتعل شيب الرأس، أو الشيب في الرأس). بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة. ووزان هذا أنك تقول: (اشتعل البيت نارا) فيكون المعنى، أن النار قد وقعت فيه وقوع الشمول، وأنها قد استولت عليه وأخذت في طرفيه ووسطه. وتقول: (اشتعلت النار في البيت) فلا يفيد ذلك.

فرحم الله الإمام عبد القاهر الجرجاني الذي أسس قواعد النظر في علم بلاغة الألسنة عامة والذي شق طريقًا جديدًا سلكه من بعده العلماء، فظل عندهم إماما مجتهدا مبرزا، سبق إلى ما لم يخطه أحد قبله، وسيبقى نبراسا وسراجا منيرا لكل من يريد السعي بهمة وإخلاص للكشف عن سر هذا الكتاب العزيز والبحث فيه.

٦ -الزمخشري: محمود بن عمر جار الله أبو القاسم المعتزلي، والمتوفى٥٣٨هـ،

جمع الزمخشري، الكثير من علوم الدين والتفسير واللغة والأدب، سافر إلى مكة فجاور بها زمنا فلقَّب نفسه بجار الله، له العديد من الكتب النافعة والماتعة، من أهمها وأكثرها اتصالا بموضوعنا التفسير البياني تفسيره الكشاف.

جاء الزمخشري ليطبق نظرية عبد القاهر بحذافيرها كاملة غير منقوصة في تفسيره الكشاف، ولا يعني هذا بالطبع أنه كان ناقلا، وإنما أعطي الرجل من البيان حظا وافيا، وكان كما قال هو مقدمته: مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقادها.

لقد بقي الكشاف على مدى العصور مدرسة ينهل منها طلاب البيان، بين مختصر ومسهب

ومعلّق، فلقد أفاد منه النسفي في عبارته كلها، ولقد ضغط البيضاوي تلك العبارة.
وتفنن فيها أبو السعود، وليس هؤلاء فحسب بل الفخر الرازي وأبو حيان وغيرهما كانت لهم عبارة الكشاف مادة غزيرة يعجبون بها تارة ويردونها أخرى.
وسنقف هنا مع بعض الأمثلة مما ذكره في تفسيره لنرى مدى براعته وتفننه في عبارته وفهمه لآي كتاب الله، وكيف انتزع من خصومه ومنتقديه الاعتراف له بالفضل، يقول الزمخشري عند تفسير قوله تعالى:(ذلك الكتاب لا ريب فيه) معناه: أنّ ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل، كأن ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص، وأنه الذي يستأهل أن يسمى كتابا، كما تقول: هو الرجل، أي الكامل في الرجولية، الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال.
وعند تفسير قوله تعالى: (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) الأنعام(٣٨)يقول: فإن قلت، هلا قيل: وما من دابة ولا طائر إلا أمم أمثالكم؟ وما معنى زيادة قوله في الأرض ويطير بجناحيه قلت: معنى ذلك زيادة التعميم والإحاطة، كأنه قيل: وما من دابة في جميع الأرضين السبع، وما من طائر في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم، فإن قلت: فما الغرض في ذكر ذلك؟ قلت: الدلالة على عظم قدرته، ولطف علمه، وسعة سلطانه وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس، المتكاثرة الأصناف.

٧- أبو السعود: هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، الشهير بأبي السعود، توفي سنة ٩٨٢هـ. من علماء الدولة العثمانية، تلقى أبو السعود العلم على أعلام عصره حتى برز في فنون متنوعة وألف المؤلفات المتنوعة وتقلد وظائف عدة منها قضاء القسطنطينية.
الكتاب مطبوع في أربعة مجلدات، وهو يعد من أبرز التفاسير في بلاغة القرآن والتفسير البياني فقد أبرز فيه أبو السعود دلائل الإعجاز البياني للقرآن الكريم، والكشف عن أسرار القرآن البيانية، فالتفسير غاية في بابه، ونهاية في حسن الصَّياغة وجمال التعبير، والكشف عن أسرار البلاغة القرآنية، حيث لم يسبقه إليه أحد، فذاعت شهرة هذا التفسير بين أهل العلم، وشهد له كثير من العلماء بأنه خير ما كتب في التفسير البياني.

وهذه بعض الأمثلة من تفسيره:

قال أبو السعود في قوله تعالى:" أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ "، مبيناً سرَ إيثار لفظَ "جَعل" على "أدخل"، وإيثار لفظ "الأَصابع" على "الأَنامل" مع أَن المعتاد أن الأنامل هي التي تجعل في الآذان لا الأصابع بكليتها، يقول: "وإيثار الجعل المنبئ عن التلبس واستمرار الاستقرار على الإدخال المفيد مجرد الانتقال من الخارج إلى الداخل؛ للمبالغة في بيان سد المسامع، كما أن إيراد الأصابع بدل الأنامل للإشباع في بيان سدها باعتبار الذات، كأنهم سدوها بجملتها لا بأناملها فحسب.

وفي قوله تعالى:{وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير} يبين سر تقديم ذكر السمع والطاعة على طلب الغفران بأن تقديم الوسيلة على المسئول أدعى إلى الإجابة والقبول.

والختم بجملة{وإليك المصير} أي الرجوع إلى الله بعد البعث بعد طلب المغفرة بقوله: (غفرانك) لبيان الحاجة الشديدة إلى المغفرة بعد الرجوع للحساب والجزاء.

٨-الآلوسي: أبو الفضل شهاب الدين محمود المتوفى سنة١٢٧٠هـ مفتي بغداد ومرجع أهل العراق علامة في المنقول والمعقول، صاحب روح المعاني التفسير الجامع لكل قديم والمشتمل على كل مفيد.

لقد كان تفسيره روح المعاني جامعةً قرآنية لم يهمل فيها مسائل المتكلم ولا مشكلات النحوي ولا روايات الأثري ولا آراء الفقيه ولا نكات البياني.

من أمثلة التفسير البياني عند الآلوسي قوله تعالى: (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم) [النحل: ٥٨] قوله: ظَلَّ وجهه، أي: صار مسودًّا من الكآبة والحياء من الناس، وأصل معنى ظل أقام نهارا على الصفة التي تسند إلى الاسم، ولما كان التبشير قد يكون في الليل وقد يكون في النهار فسر بما ذكر وقد تلحظ الحالة الغالبة بناء على أن أكثر الولادات يكون بالليل ويتأخر إخبار المولود له إلى النهار خصوصا بالأنثى فيكون ظلوله على ذلك الوصل طول النهار. واسوداد الوجه كناية عن العبوس والغم والنفرة التي لحقته بولادة

الأنثى، فمن لوازم الفرح استنارة الوجه وإشراقه ومن لوازم الغم والحزن اسوداده فلذلك كني عن الفرح بالاستنارة وعن الغم بالاسوداد،

التفسير البياني في العصر الحديث:

١ – الأستاذ أمين الخولي: المتوفى سنة ١٣٨٥هـ وهو أحد دعاة التجديد والإصلاح ومفكر إسلامي، وعضو في مجمع اللغة العربية في القاهرة، ممن دعا إلى تفسير النص القرآني ودراسته دراسة أدبية. وهو يرى أن التفسير ينبغي أن يمر بالمراحل التالية:

– المرحلة الأولى: التفسير الموضوعي وهو جمع الآيات ذات الموضوع الواحد من أولها إلى آخرها، وفهم أماكنها المتفرقة، والنظر إليها نظرة واحدة، ورد لاحقها بسابقها؛ وبهذا يكون الفهم الصحيح، فالناظر في قصة آدم عليه السلام في سورة البقرة لا يمكنه أن يتغاضى عن قصته في سور أخرى كالأعراف والحجر والكهف.

– المرحلة الثانية: الترتيب الزمني للآيات ذات الموضوع الواحد: يجب على المفسر بعد جمعه لآيات الموضوع الواحد أن يرتب هذه الآيات حسب ترتيب النزول الزمني وأن يعرف مناسباتها وملابساتها الحافةَ بها ثم ينظر فيها بعد ذلك لتفسر وتفهم فيكون ذلك التفسير أهدى إلى المعنى وأوثق في تحديده.

– المرحلة الثالثة: الدراسة، وتنقسم قسمين:

دراسة ما حول القرآن:

أولا: دراسة ما حول القرآن: وتنقسم قسمين أيضا:

أ– دراسة خاصة قريبة إلى القرآن: لا بد منها لفهم النص القرآني كأسباب النزول والنسخ ومعرفة المكي والمدني وهي موضوعات علوم القرآن.

ب– دراسة عامة بعيدة عن القرآن: وهي دراسة البيئة التي نزل فيها القرآن وعوامل تكوينها سواء أكانت تلك البيئة طبيعية أم اجتماعية أو مادية أم معنوية.

ثانيا: دراسة في القرآن: وهي كذلك تنقسم قسمين:

أ- النظر في المفردات: في تدرج دلالة الألفاظ والأثر المترتب على هذا التدرج من جيل إلى جيل والنظر كذلك إلى الظواهر المتعددة المؤثرة. فدراسة اللفظة القرآنية ينبغي أن يراعى فيها أصل وضعها ومدلولها في العهد الذي نزلت فيه ثم التطورات التي جدت عليها بعد ذلك. ومما يفيد في هذا كتاب المفردات للراغب الأصفهاني.

ب- النظر في المركّبات: مستعينا بالعلوم الأدبية من نحو وبلاغة ولكن لا على أن الصنعة النحوية والبلاغية عمل مقصود لذاته بل على أنه أداة من أدوات بيان المعنى وتحديده، وعلى أن النظرة البلاغية هي النظرة الأدبية التي تمثل الجمال القولي في الأسلوب القرآني وتبين معارف هذا الجمال وتجلّيه في ذوق بارع قد استشف خصائص التراكيب العربية.
ألف الخولي كتابا شرح فيه منهجه في الدراسة الأدبية للقرآن الكريم سماه: "مناهج التجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب.

٢ -عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ: توفيت سنة ١٤١٩هـ أديبة وعالمة ومفسرة وهي زوجة الأستاذ أمين الخولي، أستاذة الدراسات القرآنية بكلية الشريعة ودار الحديث بجامعة القرويين، وعملت في عديد من الجامعات على امتداد العواصم العربية من الرباط إلى بيروت، لها العديد من المؤلفات من أهمها فيما يختص بالدراسات القرآنية الإعجاز البياني للقرآن، التفسير البياني للقرآن الكريم،
ولقد كشفت الدكتورة بنت الشاطئ عن توجهها وانشغالها بالتفسير البياني للقرآن الكريم فقالت: "وقد شغلتني قضية الإعجاز البياني دون أن اتجه إليه قصدا فأثناء انشغالي بالتفسير البياني والدراسات القرآنية تجلى لي من أسراره الباهرة ما لفتني إلى موقف العرب من المعجزة القرآنية في عصر المبعث ووجهني إلى محاولة منهجية في فهم عجزهم عن الإتيان بسورة من مثله وقد تحداهم والعربية لغته ولغتهم والبيان طوع ألسنتهم وهم بلا ريب قد أدركوا من أسرار إعجاز البيان ما أيأسهم من محاولة الإتيان بلفظ يقوم مقام اللفظ فيه أوان يأتوا بأية على غير الوجه الذي جاءت به في البيان المعجز. أهـ.

ألفت كتابها التفسير البياني والذي يقع في جزئين، ظهرت منه الطبعة الأولى (١٣٨٣هـ) جاء هذا الكتاب كثمرة لجهد مشترك بين عائشة عبد الرحمن وأستاذها الخولي، لقد سطرت الدكتورة لكتابها أهدافا، في مقدمتها خدمة كتاب العربية الأكبر، وإبراز أسراره البيانية المعجزة.

فالتفسير البياني للدكتورة عائشة بنت الشاطئ يعد محاولة لدراسة منهجية للقرآن الكريم في وجوه إعجازه البياني، تقوم على فهم القرآن وفق منهج استقرائي، لهذا نجدها تقول في مقدمة كتابها: "وما أعرضه هنا ليس إلا محاولة في هذا التفسير البياني للمعجزة الخالدة، حرصت فيها ما استطعت على أن أخلص لفهم النص القرآني فهما مستشفّا من روح العربية ومزاجها مستأنسة في لفظ بل في كل حركة ونظرة بأسلوب القرآن نفسه، ومحتكمة إليه وحده، عندما يشتجر الخلاف، على هدي التتبع الدقيق لمعجم ألفاظه والتدبر الواعي لدلالة سياقه والإصغاء المتأمل إلى إيحاء التعبير في بيان معجز.أهـ.

اختارت الدكتورة لهذه الغايات سورا قصارا، أغلبها من السور المكية، ملاحظة فيها وحدة الموضوع، حيث العناية بالدعوة الإسلامية في مراحلها الأولى وتثبيت أصولها الكبرى.

وقد ذكرت قواعد منهج بنت الشاطئ في تفسيرها مع سوقها للأمثلة والشواهد، وهذه القواعد هي:

أولا: العبرة بعموم اللفظ القرآني لا بخصوص السبب.

ثانيا: استقراء اللفظ القرآني في كل مواضع وروده.

ثالثا: الاهتمام بدلالة السياق.

رابعا: القرآن هو القاعدة.

خامسا: ترك الإطناب عما أُبهم في القرآن الكريم.

سادسا: رفض التفسير العلمي التجريبي.

سابعا: التفسير الموضوعي.

نماذج من تفسيرها:

تقول في تفسير قوله تعالى: (وبرزت الجحيم لمن يرى) النازعات: ٣٦: والقرآن يستعمل البروز، وقوة الشخوص والظهور، في موقف القيامة والحساب،

وتسمية جهنم بالجحيم في المصطلح الديني ملحوظ فيها الأصل اللغوي وهو شدة تأجج نارها، فالجحيم والجحمة في اللغة: النار الشديدة التأجج، وكل نار بعضها فوق بعض، والجاحم: الجمر الشديد الاشتعال.

وإسناد البروز إلى الجحيم بالبناء للمجهول تطّرد به الظاهرة الأسلوبية في صرف النظر عمدا عن الفاعل لأحداث القيامة تقريرا لفاعليتها التلقائية وتركيزا للانتباه فيها.

وتقول في تفسير لفظ المقابر في قوله تعالى: (حتى زرتم المقابر) التكاثر:٢: ولفظ المقابر لم يأت في غير آية التكاثر على حين جاءت القبور خمس مرات كما جاء القبر مفردا في سورة التوبة. وقد تجد الصنعةَ البلاغية في استعمال المقابر هنا مجرد ملائمة صوتية للتكاثر، وقد

يحس أهل البلاغة ونحس معهم فيها نسق الإيقاع هذه الفاصلة، فهل تكون المقابر في آية التكاثر لرعاية الفواصل فحسب؟

المقابر جمع مقبرة وهي مجتمع القبور واستعمالها هنا يقتضيه معنويا، أنه اللفظ الملائم للتكاثر، الدال على مصير ما يتكالب عليه المتكاثرون من متاع دنيوي فإن هناك حيث مجتمع القبور

ومساكن الموتى على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم ودرجاتهم وأزمنتهم، وهذه الدلالة من السعة والعموم والشمول لا يمكن أن يقوم لفظ القبور بما هي جمع لقبر، فبقدر ما بين قبر ومقبرة من تفاوت يتجلى إيثار البيان القرآني المقابر على القبور، حين يتحدث عن غاية ما يتكاثر به المتكاثرون، وحين يلفت إلى مصير هذه الحشود من ناس يلهيهم تكاثرهم عن الاعتبار بتلكم المقابر التي هي مجتمع الموتى ومزار الراحلين الفانين.

٤ -ابن عاشور: محمد الطاهر، توفي سنة ١٣٩٣هـ. شيخ الإسلام المالكي وشيخ الجامع الأعظم في تونس المعروف بجامع الزيتونة. امتاز بمتانة علمه، وسعة ثقافته، وعمق نظره، وكثرة تدويناته وتحقيقاته ومؤلفاته. ومن أهم هذه المؤلفات على الإطلاق؛ تفسيره الجامع التحرير والتنوير، وكتابه في مقاصد الشريعة الإسلامية.

كتب العلامة ابن عاشور تفسيره هذا في نحو أربعين سنة، وقد كان هذا الكتاب أول تفسير كامل شامل للقرآن الكريم يصنف في بلاد تونس على مر السنين.

لقد كان اهتمام ابن عاشور في تفسيره للقرآن الكريم موجهاً نحو فن البلاغة ودقائقها ونكتها، يقول في مقدمة الكتاب: وقد اهتممت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز ونكات البلاغة وأساليب الاستعمال، واهتممت أيضا ببيان اتصال الآي بعضها ببعض، وهو مترع جليل ... ثم يقول: ولم أغادر سورة إلا بينت ما أحيطُ به من أغراضها لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصورا على بيان مفرداته، ومعاني جمله؛ كأنها فقرا متفرقة، تصرفه عن روعة انسجامه، وتحجب عنه روائع جماله. واهتممت بتبيين معاني المفردات في اللغة العربية بضبط وتحقيق، مما خلت عن ضبط كثير منه قواميس اللغة، وقد بذلت الجهد في الكشف عن نكت من معاني القرآن وإعجازه خلت عنها التفاسير.

نماذج من استقراءاته في كتاب الله تعالى:

يقول رحمه الله تعالى في مقدمته العاشرة التي تحدث فيها عن إعجاز القرآن وتحت

عنوان "مبتكرات القرآن": وقد تتبعت أساليب من أساليب نظم الكلام في القرآن

فوجدتها مما لا عهد بمثلها في كلام العرب، مثال ذلك قوله تعالى:(قد أنزل إليكم ذكرا رسولًا يتلو عليكم)، الطلاق(١٠) "رسولاً" بدلًا من "ذكراً" يفيد أن هذا الذكر ذكر هذا الرسول. ويقول تحت عنوان "عادات القرآن": وقد استقريت بجهدي عادات كثيرة في اصطلاح القرآن سأذكرها في مواضعها، ومنها: أن كلمة "هؤلاء" إذا لم يرد بعدها عطف بيان يبين المشار إليهم فإنها يراد بها المشركون من أهل مكة، كقوله: (إن هؤلاء ليقولون. إن هي إلا موتتنا

الأولى وما نحن بمنشرين) الدخان(٣٥) وكقوله: (بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين) الزخرف (٢٩)، وقوله:(فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين)، الأنعام (٨٩)

٥ –الأستاذ الدكتور فاضل السامرائي: ولد سنة ١٩٣٣ نشأ محبا للقرآن والعربية، درس اللغة العربية في دار المعلمين العالية في بغداد ثم أكمل دراسة الدكتوراة في جامعة عين شمس في مصر، ثم عاد إلى بغداد ودرس في جامعتها، وعين فيها عميدا لكلية الدراسات الإسلامية وهو الآن أستاذ مادة النحو والتعبير القرآني في جامعة الشارقة، وله على

أصدر العديد من الكتب المتخصصة، وكثير منها اهتم بالقرآن وبيانه منها:

– التعبير القرآني: وهو دراسة في الإعجاز البياني للقرآن من خلال النص القرآني، من حيث التشابه والاختلاف في التعبير والتقديم والتأخير والذكر والحذف.

– بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: يتحدث فيه عن الإبدال والوصف والإفراد والتثنية والجمع وتعاور المفردات.

– لمسات بيانية في نصوص من التتريل: في هذا الكتاب يختار المؤلف آيات من

الكتاب العزيز ليستخرج منها درر البيان القرآني ويدل على مواطن الفن والجمال في التعبير الفني القرآني الرفيع.

أمثلة مما ذكره في حول التفسير البياني: في قوله تعالى:(وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها) حيث يتساءل لم جيء بصيغة المذكر في قوله تعالى:(وقال نسوة) ولم يقل وقالت

فيجيب بأن الجمع الذي ليس له مفرد من نوعه وهو هنا نسوة يعامل معاملة المذكر والمؤنث. والتذكير يدلّ على القلة (قال نسوة) لأن النسوة كانوا قلّة والتأنيث يدل على الكثرة (قالت الأعراب آمنا) وهكذا في القرآن كله كما في قوله تعالى (جاءتهم رسلهم) المجتمعات أكثر من (جاءكم رسل منكم).

وتحدث عن دخول لا على الفعل لا أقسم، وما اللمسة البيانية في استخدام (لا أقسم) في القسم في القرآن الكريم؟ (لا أقسم بيوم القيامة) ، (لا أقسم بهذا البلد)؟

فيجيب بأنه لم يرد في القرآن كله كلمة (أقسم) أبداً وإنما استخدم لفظ (لا أقسم) بمعنى أقسم و(لا) لتأكيد القسم. فقد يكون الشيء من الوضوح بمكان بحيث لا يحتاج لقسم وفي هذا تعظيم للشيء نفسه. وقد تعني (لا أقسم) أحياناً أكثر من القسم (زيادة في القسم). وكثيرا ما يثير تساؤلات حول الآيات المتشابهات ويجمع بينها فيزيل الإشكال فمثلاً يتساءل ما الفرق بين كلمتي (دارهم) و(ديارهم) في قوله سبحانه: (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) هود ٦٧ وقوله سبحانه: (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) هود ٩٤ ؟

فيجيب أن الصيحة هي أشمل وأهم من الرجفة لذا فإنها تصيب عدداً أكبر وتبلغ أكثر من الرجفة والمعلوم أن الصوت يمتد أكثر من الرجفة ولهذا فهي تؤثر في ديار عديدة لذا جاء استخدام كلمة (ديارهم) مع الصيحة كما في قوله تعالى : (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) هود ٦٧ وقوله سبحانه : (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) هود ٩٤ ، أما الرجفة فيكون تأثيرها في مكانها فقط لذا جاء استخدام كلمة (دارهم) مع الرجفة كما في قوله في سورة الأعراف(فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) آية ٧٨ و٩١ (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) وكذلك في قوله تعالى:

(فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) سورة العنكبوت آية ٣٧.

ولم ترد في القرآن كلمة (ديارهم) إلا مع العذاب بالصيحة ولم ترد كلمة (دارهم) إلا مع العذاب بالرجفة.

الأصول التي يعتمد عليها في التفسير البياني:

يعتمد في التفسير البياني على الأصول التالية وهي أمور لابد من توفرها في المفسر

١-أن يكون عالما في علم اللغة.

٢- أن يكون عالما في علم التصريف.

٣- أن يكون عالما في علم النحو.

٤-أن يكون عالما في علوم البلاغة.

أولًا: علوم اللغة العربية فهي ضرورية جدًا فلا بد من التوسع فيها. فلا تغني المعرفة اليسيرة بل ينبغي للمفسر لكتاب الله تفسيرا بيانيا أن يكون على اطلاع واسع في علوم اللغة. جاء في كتاب البرهان للزركشي: "وليس لغير العالم بحقائق اللغة ومفهوماتها تفسير شيء من الكتاب العزيز، ولا يكفي في حقه تعلم اليسير منها، فقد يكون اللفظ مشتركا وهو يعلم أحد المعنيين

وجاء في كتاب الإتقان للسيوطي أن المفسر يحتاج إلى التبحر في لسان العرب.

فالمعرفة الواسعة والتبحر في علوم اللغة من ألزم الأمور للمفسر، وهي للمفسر البياني ألزم.

ثانيا: علم التصريف ويراد به معرفة تأليف الكلمة المفردة بتبيان وزنها وعدد حروفها و حركاتها وترتيبها، وما يعرض لذلك من تغيير وحذف، وما في حروفها وحركاتها وترتيبهما.

مثال ذلك: قال الله تعالى:(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ) من اللَّبس، والمعنى للبسنا أي خلطنا عليهم وشبهنا عليهم حتى يصبح الأمر في لبس، وليس من اللُّبس الذي هو لبس الثوب.

ثالثا: علوم النحو، وهو أمر أوضح من أن تبين أهميته في هذا الشأن فإن تغيير الحركة قد يؤدي إلى الكفر والعياذ بالله، فلو غيرت الحركات كما في قوله تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء) برفع الله ونصب العلماء لفسد المعنى وأصبح كفرا.

وإذا كان لا يعلم الفرق في المعنى بين الحروف والأدوات فقد يؤدي ذلك في أحيان كثيرة إلى الإحالة في المعنى وربما إلى الكفر. وأظن أنه لا يخفى عليك قولُ ابن عباس وغيره في قوله تعالى: "وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى" أنهم لو قالوا (نعم) لكفروا لأن المعنى نعم لست بربنا

وأنه لو قال بدل قوله تعالى: (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) فقال (في

صلاتهم ساهون) لم ينج أحد من الويل...

ولا تكفي المعرفة اليسيرة في هذا الأمر كما قرره علماء التفسير بل على المتصدي لهذا الأمر أن يكون عالما بدقائق اللغة وما تؤديه التقديرات المختلفة إلى اختلاف في المعاني.

الفرق بين علم النحو وعلم الصرف:

علم النحو الذي يبحث في الكلمات العربية من ناحيتي البناء والإعراب وحركات الحرف الأخير من الكلمة ككتاب شرح قطر الندى لابن هشام الأنصاري.

وعلم الصرف يبحث في أوزان الأفعال واشتقاقاتها ككتاب شذا العرف في فن الصرف.

ثالثا: علوم البلاغة: فإنها من ألزم الأمور لمعرفة الفصاحة والأغراض التي يخرج إليها الكلام والفصل والوصل وأغراض التقديم والتأخير والحذف والزيادة وما إلى ذلك من أمور تتعلق بعلم البلاغة. فلا يجوز لمن ليس له علم واسع بكل ذلك أن يتكلم في التفسير وهو يجهل علم البلاغة.

الفصل والوصل، ومعنى الفصل: قطع معنى عن معنى بأداة لغرض بلاغي، والوصل: ربط معنى بمعنى بأداة لغرض بلاغي.

ومن أمثلة الفصل: قوله تعالى: (إنما نحن مستهزؤون. الله يستهزئ بهم...) يقول الزمخشري: فإن قلت: كيف ابتدئ قوله: (الله يستهزئ بهم) ولم يعطف على الكلام قبله؟ قلت: هو استئناف في غاية الجزالة والفخامة، وفيه أن الله عز وجل هو الذي يستهزئ بهم الاستهزاء الأبلغ الذي ليس استهزاؤهم إليه باستهزاء، ولا يؤبه له في مقابلته لما ينزل بهم من النكال ويحل بهم من الهوان والذل.

وفي التقديم والتأخير ما جاء في وصف المنافقين من سورة البقرة: ﴿صمٌّ بكْم عمي فَهم لاَ يَرْجعونَ﴾ [البقرة: ١٨] وتقديم الصم، هنا جاء في غاية الإحكام، لأن بداية ضلال أولئك الأَقوام حينما عطلوا سمعهم عن آيات الله التي تتلى عليهم.

في مشهد من مشاهد يوم القيامة عن أولئك الذين ضلوا سواء السبيل ﴿ونَحْشرهم يوم الْقيامة علَى وُجُوههِمْ عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً﴾ [الإسراء: ٩٧] لقد تغيرت الصورة هنا. لذلك تغير مَعهاَ

نسق القول، فقدم العمى على السمع لأن العمى من أشد الأمور مشقة وأكثرها صعوبة في ذلك اليوم.

هذا ما تيسر ذكره مما يتعلق في التفسير البياني وما سيذكر في الدراسة التطبيقية في سور القرآن المحددة تتجلى الصورة البيانية أكثر، والله الموفق وبه نستعين.